إلا على حساب الآخر، وعندها يسقط البناء جملة وتُفصيلا ، فما كان للواقع أن يترجَم فى فن حقيقى إلا من خلال التراث والموهبة الفردية الخاصة ، وماكان للتراث أن يعيش وجوداً ذا قيمة حيوية وجوهرية إلا من خلال اختلاطه بالواقع الذى يعيد ترجمته ويؤصل لقضاياه ويزيده صقلا وأصالة .

وعلى هذا ظلت النظرة الواقعية أكثر قدرة على رد الاعتبار للواقع ، ومحاولة إنقاذه من منطقة الإهمال التى تردى فيها أو حتى الهجوم والتمرد الذى أصابه ، حيث بدأ الواقع يقوم من جديد على محاور من الفعالية التى يبدو من خلالها فاعلا ومفعولا به فى آن واحد ، وعندئذ يمكن أن تستكشف من خلاله رؤية الفنان ، ويتكشف تفاعل ذاته معه ، ليصبح الطابع الجدلى بين الذات وموضوعها أساساً للرؤية المتكاملة للأشياء ، ومن ثم بدت هذه النظرية قادرة على احتواء الموجب فى النظريات التى سبقت إليها ، رافضة للسالب فيها ، بل ربما كان هذا الرفض فى صالح ديناميكية الحركة الأدبية ذاتها فى نهاية المطاف ، تلك الحركة التى تضع لكل عنصر حجمه الطبيعى فى التشكيل الجمالى للعمل ، كما تضع فى الاعتبار - أيضا - ما يجب على الناقد أن يسلكه تفسيراً للنص وتقويما من خلال القواعد الموضوعية التى لابد أن يأخذ بها نفسه ، فى نفس الوقت الذى يطبع فيه الأحكام بحساسيته الخاصة ، بشرط أساسى يفرض عليه ألا يجعل من تلك الحساسية فاصلا نهائيا أو وحيداً فى رحلة التقويم ، حتى لا ينخرط هو نفسه أو غيره فى زحام من فوضى الأحكام النقدية .

ونظرة تاريخية شاملة لواقعنا بين ماض وحاضرتكشف عن عمقه التأثيرى فى عملية الإبداع من خلال منطق الالتزام الذى أخذ به الشاعر العربى نفسه منذ بداية رحلة قافلة الشعر العربى فى أعماق الصحراء ، حين ارتفع الصوت القبلى الحربى عند عمرو بن كلثوم ، إلى ما قابله من صوت السلام عند زهير ، إلى الرؤية الطبقية التى تبنى شعراؤها قضايا العبودية عند عنترة ، أو الصعلكة عند عروة بن الورد وتأبط شراً والشنفرى والسليك ، إلى ما جاءت به العصور التالية من ملامح التطور وحركات التجديد ، حين تحول الواقع إلى عقيدة ومعطيات فكر بدءاً من التحول الإسلامي والتجديد فى معجم الشعر ، إلى ما ورد من صور الالتزام بقضايا السياسة من لدُن الفرق السياسية المختلفة خاصة فى عصر بنى أمية ، إلى ما عاشه شعراء الخضرمة الفنية من صراعات عميقة بين مدٍّ وجزر على مستوى تلاقى الواقع